الفصل الأول

مجتمعات غير المسلمين، وموقف الشريعة منها

تقسيم المجتمعات البشرية على أساس العقيدة، ليس بالأمر النظري الذي لا أثر له في مسيرة الحياة بالنسبة لنا، أو لا تترتب عليه أحكام، بل إن بحثنا هذا بأكمله ما هو إلا نتاج هذا التقسيم، لما ينشأ عنه من آثار بالغة الأهمية، تمس المرء المسلم في دنياه وأخراه، إذ أن الشرع الحنيف شرَّع الكثير من الأحكام التي تبين للمسلم كيفية التعامل مع غير المسلمين، وما يجب أن يكون عليه موقفه منهم في شؤون الحياة المتنوعة، وطبيعة الصلة بهم، وموقعه بالنسبة لحكوماتهم التي يقيم تحت ظل قوانينها. ومجتمعات غير المسلمين تتباين بحسب أصول عقائدها، فهي ليست سواء، وليست على درجة واحدة، وفي مستوى واحد في نظر الشرع.

المبحث الأول: أقسام مجتمعات المخالفين حسب دياناتها

البشر في نظر الشريعة الإسلامية، ينقسمون بحسب الديانة، إلى طائفتين كبيرتين:

أ ـ طائفة المسلمين.

ب ـ طائفة الكافرين.

والذي نبغي بيانه هنا هو طوائف الكافرين المشهورة منها، وذائعة الصيت، وهؤلاء أصناف وملل شتى، يجمعهم وصف واحد وهو الكفر، وإن كان لكل صنف منهم اسم خاص يميزه عن الآخر.

«والكافر هو من لم يؤمن بوحدانية الله سبحانه وتعالى، أو بنبوة محمد ﷺ، أو بشريعته، أو بثلاثتها»[1].

وبعبارة موجزة: هو من لم يعتنق دين الله الحق (الإسلام).

وهم أصناف:

أولاً: أهل الكتاب:

اختلف الفقهاء في تحديد الكتابي، وفيمن ينطبق عليه هذا الوصف، إلى فريقين:

الفريق الأول: الحنفية:

فقد ذهبوا في تعريفه إلى أنه: «هو كل من اعتقد دينًا سماويًا، وله كتاب منزل، كالتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وشيث، وزبور داود»[2]، ونص على ذلك الشافعي[3].

فأهل الكتاب عند هؤلاء ليسوا هم اليهود والنصارى كما هو مشهور فحسب، بل هم من لهم كتاب ذو أصل سماوي.

---

(١) المعجم الوسيط، ٢/٧٩١.

(٢) انظر تبيين الحقائق، ٣/١١٠. الفتاوى الهندية، ١/٢٦٣.

(٣) الأم، ٤/٢٨١.

ويظهر أن الحنفية ومن وافقهم، نظروا إلى طبيعة اللفظ اللغوية «أهل الكتاب»، أي أصحاب أي كتاب سماوي، وبه قال أبو يعلى، من الحنابلة[1].

الفريق الآخر، وهم جمهور الأمة من العلماء والفقهاء:

فقد قالوا: «إن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى فقط»، ولا يدخل غيرهم في هذا المسمى، لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ (الأنعام:١٥٦).

ووجه الدلالة، أن أهل الكتاب لو كانوا أكثر من طائفتين لما خصهم بهما (أي بالطائفتين).

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: إن المقصود بالطائفتين هم اليهود والنصارى، وذهب ابن عطية إلى إضافة القول: «بإجماع من أهل التأويل».

وقال أصحاب هذا القول: وأما أصحاب الصحف فلا يدخلون تحت مسمى (أهل الكتاب)، لأنها كانت مواعظ، وأمثالاً لا أحكام فيها ولا شرائع، فلا يثبت لها حكم الكتب المشتملة على الأحكام.

---

(١) المغني والشرح الكبير، ٥٠١/٧. وأبو يعلى هو: محمد بن الحسين ابن الفراء، إمام الحنابلة، عالم عصره في الأصول والفروع، من أهل بغداد، ولد سنة ٣٨٠هـ، وتوفي سنة ٤٥٨هـ، له تصانيف كثيرة. طبقات الحنابلة، ١٩٣/٢. الأعلام، ٢٣١/٦.

ولا يشترط في الكتابي أن يلتزم بدينه عقيدة وسلوكًا، فقد ذهب جمهور الأمة[1] إلى أنه تكفي العقيدة، فبمجرد أن يعتقد شخص دينًا من أديان أهل الكتاب فإنه يصبح به كتابيًا، ولو لم يلتزم بالعمل بأحكامه، أو لم يكيِّف منهجه وفق منهج دينه.

وأما ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه من اعتراضه على الصحابة لما اعتبروا عرب بني تغلب المتنصّرين من أهل الكتاب، أنه قال: «إنهم ليس معهم من النصرانية سوى شرب الخمر»، فأجابه جميع الصحابة: «حسبنا أنهم صاروا نصارى».

وردّ ابن عباس رضي الله عنهما فقال: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ (المائدة: ٥١).

فلو لم يكونوا منهم إلا بالولاية في نصرهم، وتوليتهم إياهم في الحرب لكانوا منهم»[2]، واتفق الصحابة على ذلك ما عدا عليًا رضي الله عنه[3]، وصالحهم عمر رضي الله عنه على الجزية[4].

---

(١) انظر الطبري، ٦/٦٥-١٧٩. تبيين الحقائق، ٣/١١٠. ورسائل الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود، ١/٣٧٢.

(٢) انظر الطبري، ٦/١٧٩. المنار، ٦/١٧٩.

(٣) انظر مجموعة رسائل الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود، ١/٣٧٢.

(٤) الأموال لأبي عبيد، ص٣٨.

وقد روي عن علي رضي الله عنه أنه كان يكره ذبائحهم ونساءهم، ولم يحرمهما[1].

ثانيًا: المجوس:

المجوس قوم يعظمون الأنوار، والنيران، والماء، والأرض، ويقرون بنبوة زرادُشت[2]، وقيل: كان له كتاب، ولهم شرائع يقرون بها، وهم فرق شتى[3].

واختلف الفقهاء: هل المجوس أهل كتاب أم لا؟ على قولين:

القول الأول: وهو قول جماهير الأمة، أنهم ليسوا بأهل كتاب[4].

القول الثاني: وهو قول الشافعي، أنهم أهل كتاب.

فقد قال في الأم[5]: «والمجوس كانوا أهل الكتاب، يجمعهم اسم أنهم أهل كتاب مع اليهود والنصارى».. وروي عن علي رضي الله عنه أنه كان للمجوس كتاب يقرؤونه وعلم يدرسونه، ولكنه رفع[6].

---

(١) الطبري، ٦/٦٥.

(٢) زرادشت هو ابن يورشب «ولد في شمال غربي إيران، واختلف في تاريخ وجوده، فقيل: إنه عاش في القرن السادس قبل الميلاد.. اعتبر نبي الفرس الأقدمين»، المنجد في الأعلام، ٣٢٠.

(٣) إغاثة اللهفان، ٢/٢٤٧. والمدخل إلى دراسة الأديان، ١/٣٢.

(٤) انظر سبل السلام، ٤/١٢٧٣. كشاف القناع، ٣/١١٧.

(٥) الأم، ٤/١٧٣.

(٦) حسّن إسناده ابن حجر والقسطلاني، وضعّفه أحمد والهيثمي وابن القيم، لأن فيه أبا سعد البقال وهو متروك، انظر إرشاد الساري، ٥/٢٧٣. زاد المعاد، ٣/٢٢٤، طبعة المؤسسة العربية، بيروت.

وقال الصنعاني: «ولا يخفى أن في قول النبي ﷺ **«سنوا بهم سنة أهل الكتاب»**[1]، ما يشعر بأنهم ليسوا بأهل الكتاب»[2].

قلت: ومما يؤيد رأي الجمهور، عدم حل ذبائحهم ونكاح نسائهم، باتفاق أهل العلم إلا «أبا ثور»[3].. ومن جهة أخرى، فإن قول علي رضي الله عنه والشافعي رحمه الله خلاف ما تدل عليه آية: ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾ (الأنعام:١٥٦)، إذا نحن أخذنا بظاهرها، لتصبح لدينا ثلاث طوائف بدل اثنتين.

أماكن وجودهم: توجد في إيران في الوقت الحاضر طائفة من المجوس، يبلغ عددها المليون تقريباً، ولهم معابد ونيران[4] لا يدعونها تخمد لحظة واحدة[5].

---

(١) رواه مالك في الموطأ، ١٨٨ بسند منقطع، والشافعي، والطبراني بلفظ: «سنوا بالمجوس سنة أهل الكتاب»، كما أخرجه عبد الرزاق والبيهقي وأبو يعلى، وهو حديث مرسل (والحديث المرسل: قول مَن لم يلق النبي ﷺ: قال رسول الله)، وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه، وقال ابن كثير في تفسيره، ٣/٨٠: لم يثبت بهذا اللفظ، وضعفه الألباني في إرواء الغليل، برقم ١٢٤٨، ٥/٨٨. وأما الحافظ ابن حجر فقال في الفتح، ٦/٢٦١: «إسناده حسن». وأيا كان فإنه يغني عنه الحديث الذي رواه البخاري وغيره عن بجالة بن عبدة قال: لم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هَجَر.

(٢) سبل السلام، ٤/١٣٧٣.

(٣) موسوعة الإجماع، ٢/٩٧٤.

(٤) أحكام الذميين والمستأمنين، ص١٦.

(٥) مجلة كلية أصول الدين، عدد٤، ص٢٢٥.

ثالثًا: الدهريون:-

الدهريون ينكرون الخالق، ويقولون: لا إله ولا صانع للعالَم، وأن هذه الأشياء وُجدت بلا خالق.. فهم قد عطلوا المصنوعات عن صانعها، وقالوا ما حكاه الله عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ (الجاثية:٢٤).

وقال تعالى عنهم أيضًا: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (الأنعام:٢٩).

والدهر هو مر الزمان الطويل، وطول العمر، واختلاف الليل والنهار.

وقالت فرقة منهم: إن الأشياء ليس لها أول البتة، وإنما تخرج من القوة إلى الفعل، وإن العالَمَ دائمٌ لم يزل ولا يزال[1].

وهؤلاء قديمًا، يتفق معهم حديثًا -في أصل نظرتهم للكون والحياة- الشيوعيون.

والشيوعية: مذهب فكري يقوم على الإلحاد -أي إنكار وجود الله سبحانه، والغيبيات كلها- وأن المادة هي أساس كل شيء.

وتُفسِّر الشيوعيةُ التاريخَ بصراع الطبقات وبالعامل الاقتصادي..

---

(١) إغاثة اللهفان، ٢/٢٥٦.

وشعارهم: نؤمن بثلاثة: ماركس[١]، ولينين[٢]، وستالين[٣]، ونكفر بثلاثة: الله، والدين، والملكية الخاصة!

وينكرون الآخرة، ويؤمنون بأزلية المادة، ويحاربون الأديان[٤]، والملكية الخاصة[٥]، ومن شعاراتهم العسكرية: بالحديد والنار تنتصر الثورة.

عُرفت الشيوعية بالقسوة والعنف والإبادة الوحشية للمخالفين لها، لكن التطورات الأخيرة فيما كان يعرف بالاتحاد السوفياتي حملت انفراجًا للأديان.

رابعًا: المشركون:

سمي هؤلاء بالمشركين نسبة إلى الشرك.. والشرك: هو أن يتخذ المرء من دون الله ندًا (أي مثلاً ونظيرًا) يحبه كحبه، ويعظمه كتعظيمه، ويعبده كعبادته، وهذا هو حال مشركي العالم، إذ يسوون آلهتهم برب العالمين[٦].

---

(١) ماركس: هو كارل ماركس اليهودي، ولد سنة ١٨١٨م، في ألمانيا، وتوفي سنة ١٨٨٣م، واضع الأسس الفكرية والنظرية للشيوعية، كان أنانيًا متقلب المزاج حاقدًا. التضليل الماركسي، ص٥٩.

(٢) لينين: هو فلاديمير أليتش، ولد سنة ١٨٧٠م، وتوفي سنة ١٩٢٤م، يهودي الأصل، قائد الثورة البلشفية في روسيا، عام ١٩١٧م. الموسوعة الميسرة، ص٣٠٩.

(٣) ستالين: هو جوزيف فاديونوفتش، ولد سنة ١٨٧٩م، وتوفي سنة ١٩٥٤م، سكرتير الحزب الشيوعي. الموسوعة الميسرة، ص٣١٠.

(٤) بالرغم من أنهم يعلنون محاربة الأديان وينكرون وجود إله، فإنهم يقولون بشأن اليهود وفلسطين: «إننا لا نؤمن بالله حقًا، لكننا مقتنعون بأنه (أي الرب)، خصص أرض فلسطين لشعب إسرائيل»، جريدة الشرق القطرية، بتاريخ ١٩٩١/٦/٥م.

(٥) انظر الموسوعة الميسرة، ص ٣٠٩. التضليل الماركسي، ص ١٨٤.

(٦) مدارج السالكين، ٣٣٩/٢.

وقد سُئل النبي ﷺ : أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»(١).

فهؤلاء المشركون يقرون بربوبية الله تعالى في الجملة، وأنه الخالق المالك، ولكنهم لا يفردونه -سبحانه- وحده بالعبادة والتوجه، بل يجعلون معه غيره -ليقربهم إلى الله- مما يستحسنونه من الأصنام والأوثان والشمس والملائكة والنيران والأنَاسِيّ، وغير ذلك.

ومن ملل أهل الشرك ذوات النفوذ والانتشار والأغلبية في ديارها، نذكر: الهندوسية، الكونفوشيوسية، البوذية، السيخية.

المبحث الثاني:
موقف الشريعة من المخالفين وأصل علاقتها بهم

مما هو في نطاق اليقين، بإجماع الأمة سلفًا وخلفًا، أن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧). وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾ (النساء:١٧٠). وقوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ (الأعراف:١٥٨).

---

(١) رواه البخاري، ٨/٢٠٧ في كتاب التوحيد، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.